المحاضرة 02:

الاتجاه المحافظ

1- بدايات الاتجاه المحافظ:

تعد الحركة الشعرية المحافظة استمرارا طبيعيا للتجارب السابقة، ممن كتبوا وفق أسلوب تقليدي مُحافظ على مستوى الأشكال والمضامين؛ إذ "لا يمكن أن نتصور جيلا أدبيا لاحقا منفصلا عن جيل أدبي سابق. فما من جيل أدبي إلا وله جذور مُمتدة في الماضي يستمد منها، ويتفرع عنها، ويضيف إليها"، فهي بمثابة الأرضية الصلبة للانطلاق نحو قيم شعرية جديدة تستمد من روح العصر وشروطه الثقافية، والاجتماعية، والسياسية، والتاريخية...

ومع انبعاث الحركة الشعرية الجزائرية في سنة 1968، عاد الشعراء إلى استلهام نمط القصيدة العمودية، "التي حاول شعراؤها إرساء وُجودها بنفس شعري متطور، ومتميز نسبيا، راهن على استيعاب مقتضيات الشعر المتجددة، وحاول الجمع بين الأصالة والمعاصرة شكلا ومضمونا، دون أن يتنصل الشعر، على أيديهم من بنيته العروضية، ودون أن تقف القصيدة عند حدود البناء الفني المعماري القديم لقصيدة ما قبل الاستقلال". من أبرز هؤلاء: مصطفى الغماري، سليمان جوادي...

رغم هذا التطور النسبي، لم يستطع المحافظون مواكبة روح العصر وما تتطلبه مرحلة السبعينات في الجزائر، وفي ذلك يقول محمد زتيلي: "إن أصحاب القصيدة

العمودية المعاصرين ظلت طروحاتهم وقضاياهم أكثر بعدا عن تلك الحركة الاجتماعية، وعن التحولات الجذرية التي يشهدها المجتمع، فجاءت قصائدهم تصفيقا مجانيا لإنجازات ثورية، أي احتفالا لا واعيا بمناسبات وطنية عظيمة، أو هروبا نحو مواضيع في الوعظ والإرشاد".

ولعل الإشكال لا يتعلق بالشكل الشعري، وإنما بقدرة الشاعر على رصد الواقع ومساءلته وكشف تناقضاته، فقد "صاغ الغماري أكثر قصائده في القالب المحافظ، ليثبت قدرته وقدرة هذا القالب معا على التعبير عن تجارب الشاعر وهمومه، ونظم أقل قصائده في القالب الحديث ليثبت أن انحيازه إلى العمود الموروث ليس لعجز عن إبداع شعر التفعيلة". مما يدل على قدرة متميزة للشاعر في استيعاب وتمثل التراث الشعري السابق وفق حاجيات العصر.

2-الخصائص الفنية لشعر الاتجاه المحافظ:

-على المستوى اللغوي:

تقتضي الكتابة وفق النمط التقليدي المحافظ الجنوح إلى القاموس اللغوي القديم، ولكن ذلك يتم بشكل نسبي لدى شعراء الجزائر في هذه الفترة، فقد حاول أغلبهم توشيح قصائدهم بلغة تقترب من روح العصر، وتلبي نوعية واحتياجات القارئ المعاصر، وتراهن على التجديد في القصيدة العمودية.

لقد شهدت مرحلة ما بعد السبعينات، تنامي دعوات الخصوم بضرورة التخلي عن الأشكال التقليدية، خاصة من ناحية اللغة، "حيث كان شعراء التفعيلة يعيبون على رفقاء دربهم جمود القصيدة العمودية، على اللغة التقليدية، التي توجه إليها تهمة التقريرية والمباشرة، وأن القصيدة العمودية قصيدة أفكار، لا قصيدة صور وخيال وزخم فني متداخل لغة وصورة".

وهذا يصدق على بعض الإنتاج الشعري، فقصيدة "مُعلقة الجيل الأخضر" للشاعر عيسى لحيلح مثلا من هذا النوع –حسب الناقد يوسف وغليسي– خصوصا على مُستوى "بنيتها النحوية ذات الغلبة الاسمية المطبوعة بالذهنية والمباشرة وتسمية الأشياء بمسمياتها، في غياب التصوير الفني المكثف". فالشاعر هنا مجرد ناقل لقوالب شعرية لها خصوصيتها في زمانها.

وعلى النقيض، لم تكن قضية الشكل التقليدي عائقا أمام شعراء آخرين، فقراءة "قصائد الغماري العمودية في ضوء المقاييس النقدية البلاغية القديمة تبين لنا تفوقه في هذا الميدان...؛ إذ يصدر في الأغلب الأعم من أشعاره عن طبع صاف، فلا تطبع ولا تقعر، وإن كان يستخدم أحيانا مفردات قاموسية تجاوزتها مسيرة التطور. وهو يمتاز بإشراقة الديباجة والنصاعة ومتانة السبك". مما يدل على وعي الشاعر بطبيعة التحول رغم اعتماده على الهيكل الشعري التقليدي.

-أما على مستوى الموسيقى الشعرية:

لم يخرج عنصر الإيقاع في الشعر الجزائري المعاصر عند الاتجاه المحافظ عن سابقه في الشعر القديم والحديث، فقد "ظل الإيقاع في القصيدة العمودية، مُرادفا للإيقاع في القصيدة العربية القديمة والحديثة والمعاصرة، مع بروز الخصوصية الإيقاعية لكل شاعر، لأن الإيقاع لا يتحدد بالوزن الشعري وحده... بل تلعب فيه اللغة دورها الأساسي"، ولم يقتصر الشعر المحافظ الجزائري المعاصر على استعمال البحور الصافية فقط، بل جمع إليها الالتزام بالقافية الموحدة، باعتبارها خاصية إيقاعية لا يكتمل الإيقاع إلا بها.

-على مستوى الصور الشعرية:

فقد شهدت الصور الفنية نقلة نوعية مما جدد في نبض القصيدة المحافظة؛ فقد عَبَر الشعر الجزائري من قصيدة الموضوع إلى قصيدة الرؤية، من خلال الاستفادة من معطيات النقد الجديد، واستلهام خصائص التراث الصوفي، وما يمنحه من طاقات رمزية وتعبيرية تنقل الصور الفنية إلى مستوى أعمق، وممن برعوا في هذا المجال الشاعر "مصطفى الغماري" منذ تجاربه الأولى في السبعينات. لقد انتبه الشعراء الجزائريون إلى تقنيات جديدة تثري لغة المجاز، كالتشخيص، والتكثيف، والذاتية، والأسطورة، والإشارة...

مراجع المحاضرة:

- الطاهر يحياوي: تشكلات الشعر الجزائري الحديث.
- محمد ناصر: الشعر الجزائري الحديث اتجاهاته وخصائصه الفنية 1925-1975.
- حسن فتح الباب: شعر الشباب في الجزائر بين الواقع والآفاق.
- يوسف وغليسي: في ظلال النصوص تأملات نقدية في كتابات جزائرية.
- محمد زتيلي: فواصل في الحركة الأدبية والفكرية الجزائرية.